

## النقد

## في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

ليس النقد إلا ميلاً طبيعياً في الانسان إلى الحكم على ما يحس وما يرى ، واختيار الأحسن من ذلك . ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر ، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة في كل أمة ؛ بل هو ضروري لتقدم الأدب : يقفه على مواضع إحسانه ويظهره على مواطن قصيره ، ويجلو أمامه غايته وطرائقه ، ويستحسنته على دوام الترقى والتزيد . فالأدب صدى الحياة ، والنقد صدى لذلك الصدى ، يُظهر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب في تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم في النفوس فالناقد التزيه خير صديق للأديب : يضع أصبه على عيوبه فيتلافها ، ويستحسن إجاداته فيزيده ثقة بنفسه واثباتاً على ممارسة أدبه . ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث : فقد وجد الأخير في صاحبه — حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه — خير عارف بقدره ممجّب بأدبه ، وكان لانهجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى في أدب ووردزورث ، وكان الشعر الذي كتبه في عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق

يبدأ أن الأحقاد الشخصية مريبة إلى نفوس الأدباء والنقاد ، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد . وقد شهد الأدبان العربي والانجليزي ما لا يحصى من أمثلة النقد الفرض ، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد . ومن أمثلة ذلك في المربية حملة صاحب ملي التنبئي وإشلائوه عليه أذناه . وفي الانجليزية عانى اعلام الأدب أمثال ووردزورث وتينسون وكيتس حملات الرجميين والحاسدين ، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فأقذع أن مات محتضراً في عنقوانه

وقد كتب الكتاب في المربية والانجليزية وغيرها من اللغات في النقد كثيراً ، وحاول كل من عالجها أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فنون الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارىء والناقد على استحسان الحسين واستهجان المهجين مما يكتب الكتاتيون ، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شيء ذي بال ، بل ناقض بعضهم بعضاً ، واستجاد هذا ما استرذأ ذلك ، وظل المرجع الأول في نقد الأثر الأدبي إلى ذوق الناقد وتكوينه الفكري ، وظل كل أثر أدبي من شعر أو نثر يحمل في طياته المبادئ التي يجب أن يتقده على حسبها ، بل رأى ووردزورث — وأصاب — أن الناقد الذي يُقبل على نقد أثر أدبي ، وقد كون لنفسه مبادئ ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره

وللنقد صور شتى : فالأديب هو أول ناقد لأدبه ، وإنشاء الأثر الأدبي عملية مكونة من الخلق والنقد معاً ؛ ومن الأدباء من يمرض ما ينشئ على رفاقته ، ويستمع إلى ملاحظاتهم عليه ؛ وكان ذلك معروفاً بين العرب قبل أن تذبج الكتابة ، كما كانوا يمرضون أشمارهم على النقاد في الأسواق الأدبية ، ولتتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم تقادة حفصاء للأدب . ويروى لمبيد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم : كثير وليلى الأخيلية والتنبئي نوادر في ذلك ، فكثيراً ما كان الأمير أبصر بالأدب وتقده من مادحه ؛ فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد

وكتب النقد أنواع : فمنها ما يدرس مبادئ الأدب وغاياته ووسائله ويدخل في هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية ، وهي كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد . ويشترك الأدبان العربي والانجليزي في وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبي فيهما ؛ ومن كتب النقد ما يدرس أدبياً واحداً أو مجلة أدباء على منهج خاص من الدراسة ، كالكتب الكثيرة المؤلفة في دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتينسون وهاردي ؛ ومنها ما يدرس نوعاً خاصاً من الأدب كالفن أو الشعر الغنائي ، ومن ذلك كتاب أبر كروسي عن الملحمة ؛ ومنها ما يدرس عصرراً يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فنونه ، كالمصر الانجليزي والمصر الفيكتوري ؛ ومنها ما يدرس من عصور

يرى بين أديبهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة في الحالتين ؛ ولا غرو فالنقد كما تقدم صدق الأدب ، بل إن النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما صدقاً مستمرا طوال العصور ؛ والخصائص التي تغلب على أحدهما لا بد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد في العربية والنقد في الإنجليزية ما نجد بين أدبي اللغتين من فروق في نواحي المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبي ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا

فردية المحافظة هي الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا إلى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلاً زعم أنه يجدد بذ الأوائل ثم يأتي بأمثله من تجديده فاذا هي محافظة مفرقة وتقليد مفرط ؛ وأغلب نقاد العربية يقدسون النقد بين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولاً ويضمونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو علي الحاتمي يحسبه أني يجديده حين مثل القصيدة بالإنسان في تناسب خلقه ، فلا ينسب أن يقول : « وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسبيها عديجها ، كالرسالة البلغة » ، فهو لا يتصور القصيدة إلا نسيباً ومديحاً كما فعل الأوائل . وتتجلى نزعة المحافظة في النقد العربي في أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد في العربية كما تقدم وقف الناشئ التأديب على بلاغة المتقدمين ، وتفهمه أسرار إعجاز القرآن ، لينجو منحنى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تلميح المتأخرين كيف يقلدون الأولين

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد إلا شذرات مقتضبة بيده عن التنظيم ، كوصية عبد الحميد لمشر الكتاب ونصيحة أبي تمام للبحثري ؛ ورعباً تار بمض الشعراء بما درج عليه زملائهم من تقاليد ، كثورة أبي نواس بالوقوف على الديار في مثل قوله :

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ولا صفا قاب من يصبو إلى وتد  
وتغرّد النبي على النسب الاستهلال في قوله :

إذا كان شعراً فالنسب المقدم أكل أديب قال شعراً متم ؟  
ولكنها كانت خطرات عابرة لم تكون مذهباً ولم تغير سنة ، بل لم يتبهما قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما

أدب اللغة جملة : وتلك هي كتب تاريخ الأدب ، وليست في صميمها إلا تقدماً ، وهي حديثة العهد

وكل هذه الأنواع نادرة في الأدب العربي وبعضها لا يوجد به ، وإنما الضرب السائد فيه هو ذلك الذي توخاه مؤلفو البيان والتبيين والكمال وبتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام ومررد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ؛ وتلك هي كتب الأدب التي لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم ، بل كان الغرض اقتطاف أطايب آثار المتقدمين وتقدمها للمتأديبين السالكين سبيل الأدب الطالبيين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل إخراج الأديب القبل

وقد استفاد النقد في الانكليزية كثيراً بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربي في نواح شتى : فتقدم علم التاريخ علم النقاد أن يهتموا بحالة العصر الذي يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ؛ وتقدم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التي نشأ فيها الأديب الذي يدرسون والصفات التي ورثها عن أسرته ، وضراجه النفسي وتكوينه الجسمي ، وأثر كل ذلك في أدبه ، فجاء النقد الانكليزي الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرز للمصور والأعلام صوراً جلية وشخصيات متميزة

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماماً بدراسة فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدراسة الأشخاص والمصور ؛ وقد أسهبوا في درس الفنون التي فشت في أديبهم واستأثرت بمعظم تترهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسب الاستهلال والمدح والمجاء والرثاء ، وهي المناحي التي لم تظفر من أدباء الانكليزية ونقادها بالفتات ، فقسّم قدامة بن جعفر مثلاً المدوحين الى ضروب : فلوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح في أربع : الشجاعة والمدل والمقل والمغة ، يجمعها قول زهير :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله  
فن مثل حصن في الحروب ومثله لا تبارك ضيم أو ظمع يجادله  
والناظر في كتب النقد في الأديب العربي والانكليزي ، يرى — عدا ما تقدم — فروقا واضحة بين تقدي الأمتين كالفرق التي

إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والمعجمي والقروى والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، « وقال ابن الأثير « ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقه أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين ؛ فالمباراة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني »

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم إلى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيها سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام الجناس والطباق والسجع ، وطُرق تضمين الآيات وحلّ الأشعار ؛ ووجود علم البديع في العربية دون الإنجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ؛ وكان للنقاد والأدباء معاً إيماناً وطيداً بمقدرة اللغة على أداء أي معنى ، وثقة لا تزغزع في تفوق اللغة العربية في الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التي بذتهم في شتى العلوم

أما موقف جمهور الأدباء الإنجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وإن لم ينفخوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقفه على أسرارها ، ظلوا يمدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خواجج النفس ، بل عدّها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية إلى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدي غرضه ؛ فلم يهتم أدباء الإنجليزية وتقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها الموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملازمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية التخيلية على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفي أو النظر المرئي : من رهبة أو جذل أو مسكون أو سرعة ، وبفاضل النقاد الإنجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويرها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون إن الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية

ولما كان إيمان العرب بتفوقهم اللغوي كما تقدم ، لم يهتموا

نظمه ، وإنما مارس النقد في العربية المقلون في النثر والشعر كالجرجاني وأبي هلال العسكري ، أو من لم يؤثر عنهم شيء ، وهكذا كان الأدباء فريقاً والنقاد فريقاً آخر

أما في الإنجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضاً ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضاً زعيم النقد فيها : فسكل من بن جونسون ودريدن وبوب وصموئيل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسي وماكولي وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتباً أو شاعراً كما كان ناقداً ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فإن يكون الأديب أديباً حتى يكون له رأى في الأدب والحياة ينضح عنه في كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه في آثاره الأدبية ، وكل من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة في الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته في النقد . فبينما كان غرض النقد في العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان في الإنجليزية ابتداء حركات جديدة

ولا ريب أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدها ، لأنه لا يعرف الشوق إلا من يكابده ؛ والأديب الذي يملن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلة مؤيدة لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث في أغانيه الشعبية ومقدسته النثرية لها ، أخرى أن يتبع من الناقد الذي لا يمارس الأدب ، وإنما على على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربي تنحى فحوله عن مضار النقد ، وتركهم مجاله لمباد القديم ومقدسي السلف

ولتقدس النقاد للقديم وقيوا موقفاً متناقضاً : فكانوا ينكرون على الأديب أن يجحد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التي سبقوه إليها ، وصرخوا جانباً عظيماً من اهتمامهم إلى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب الوساطة للجرجاني أغلبه جهده ضائع في تقصى المعاني إلى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القوائد بيتاً بيتاً ؛ والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية

وكان نقاد العربية أكثر التفاتاً إلى الألفاظ منهم إلى المعاني ، وعدوا أكثرهم إحكام اللفظ ميزة الأديب الفحل ، وعدوا المعاني مشاطة بين الجميع ، قال أبو هلال العسكري : « وليس الشأن في

## صور سياحة

أيام في سويسرا  
بقلم سائح متجول

غادرنا باريس في منتصف الليل قاصدين إلى سويسرا ؛ وإذا كنا قد هبطنا باريس فرحين متعطشين بزيارتها والتمتع برؤية معالمها ومساهدا التاريخية ، فقد غادرناها أيضاً دون أسف ، بعد أن تركت في نفوسنا صوراً أخرى غير تلك الصور الخلابة التي ألفناها في كتب الأدب وفي المقالات والفصول الرنانة ؛ وسار بنا القطار ينهب الأرض ليلاً متجهاً نحو الاژاس ، فلما أسفر الصبح كنا نخترق أراضي الاژاس مارين بتلك المواقع الشهيرة في تاريخ الحرب والسياسة مثل بلفور ومياهوز وغيرها ؛ وقد لاحظنا منذ بدأنا نجوز الاژاس أننا نكاد نخترق أرضاً غير فرنسية ، فالناس يتحدثون بالألمانية المحرفة (أو الاژاسية) في كل مكان حتى موظفي القطار يخاطبون الركاب بالألمانية ، وكل ما هنالك من طبيعة ومناظر وأشخاص يكاد ينطق بأن الاژاس ليست فرنسية في طابعها وفي روحها ، وإن كانت السياسة ومصائر الحرب قضت بأن ترد الاژاس واللورين إلى فرنسا عقب انتصارها في الحرب الكبرى

ووصلنا إلى الحدود السويسرية في الصباح الباكر ، ودخلنا محطة بازل (أوبال) حيث أجريت الاجراءات الجركية في أدب وظرف ؛ وشعرنا في اللحظات القليلة التي صرت حتى وصولنا إلى الفندق أننا نجوز إلى محيط آخر أرقى خلالاً ومدنية من محيط فرنسا والشعوب اللاتينية كلها ؛ وإنك لتأنس نفس الشمور عند ما تخترق الحدود الإيطالية مثلاً إلى النمسا ، فتشعر في الحال أنك غادرت في إيطاليا محيطاً أقل مدنية وخلالاً

وسويسرا موطن السياحة بحق ، والسياحة أهم مواردها القومية ، ولهذا تعنى ولايات الاتحاد السويسري ومدنه المختلفة بتنظيم شؤون السياحة أحسن تنظيم وتذيع عن سويسرا ومصايفها ومشائها ومناظرها وزهرها نشرات بدعوة جذابة ، وتعنى بتنظيم

بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبي كثيراً ، فهم واضعو علوم البلاغة في لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدتم في هذا السبيل جسيم جليل ؛ أما الانجائز فجعلوا النقد الأدبي الأجنبي دائماً نصب أعينهم ، قديماً كان أو حديثاً ، فما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس في النقد نشأ النقد الأدبي في الانجليزية ، وغدّي بعد ذلك بكتابات دانتي وبوالو ولسنج وجيته وسنت ويف وتين ؛ فالناقد الانجليزي يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفریق ولا ريب أن اشتغال النقد الانجليزي على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجته القرائح في العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تنقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة إتقان الناقد في أدب ما أدباً أجنبياً واحداً على الأقل ، ترداد قائده له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلي

فأكثر النقاد الانجائز كانوا كاتعتمد من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبية ، وما كتب فيها في النقد ، ثم هم كانوا - ولا سيما متأخروهم - مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كتب في تقدها ، بل كان منهم من جمع بين تقدها والنقد الأدبي : فديردن واضع أساس النثر الانجليزي الحديث كتب رسالته في « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكري وركسن بين نقد الادب وتقده التصوير أو النحت ؛ ولا ريب أن تفقه الناقد في تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر في الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون في وسائلها وغاياتها

فالناقد الانجليزي كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظماً ونثراً فهو أدري بدخائله ولأنه مطلع على الادب الأجنبي والنقد الاجنبي ، فهو أدري بمحاسن أدبه ومثاله ، ولأنه متبصر في الفنون فهو أعلم بمناس فنه انخاص - الأدب - ومن ثم حفل الأدب الإنجائزي بالدراسات القوية لمصور الادب وخطوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجاً وأبين معالم من تاريخ الأدب العربي

فخرى أبو السعود